الإيرانية مريم جعفري في روايتها " لا تنسني " :

إشكالية العلاقة بين الشرق و الغرب

ابراهيم حاج عبدي

يمكن القول إننا إزاء نص روائي يعيد طرح أبعاد تلك العلاقة الإشكالية بين الشرق بروحانيته و سحره و الغرب بماديته و صرامته و لكن هذه المرة من إيران عبر رواية " لا تنسني " للكاتبة الإيرانية مريم جعفري التي تختار جانبا من هذه العلاقة للوصول الى هدفها المعلن في اكثر من مكان في الرواية الا و هو حث الشباب على عدم ترك بلادهم و السفر باتجاه أوربا أملا في تحقيق الأمنيات و محاولة إقناعهم بدلا من ذلك بالاستقرار في وطنهم و تفضيل الزواج من الفتاة الشرقية " بنت البلد" على الزواج من أجنبية .

ربما كان هذا الأمر هو أحد هواجس المرأة الشرقية عموما التي تجد نفسها عانسا بعد رحيل "فارس الأحلام"، والكاتبة هنا تجعل من نفسها ناطقة رسمية باسمها و هي إذ تحاول ذلك فأنها تنأى بنفسها عن الصراع لتختار - خلافا لما هو دأب الكتابة الإبداعية النسائية التي تختار غالبا بطلة من جنسها- بطلا لروايتها هو أرسلان وفائي ليسرد هذه الإشكالية عبر تجربته الذاتية فهذا البطل الرومانتيكي الذي يعيش منذ الصفحات الأولى للرواية صراعا حادا ويتحدث عن نفسه و يصف لنا أحاسيسه و قلقه بدقة شاعر ابالوحدة و تأنيب الضمير و يعاني من حالة نفسية بائسة دون أن نعلم الظروف التي قادته الى هذا الإحباط، وسرعان ما ينساق القارئ مع بطله في استرجاعه للماضي المثقل بالآلام مدونا من عتمة الذاكرة صفحات مليئة بالخيبة فيعود الى طفولته المدللة في الأسرة الإيرانية مرورا بسفره الى لندن المدينة التي تركت في نفسه ندوبا غائرة ثم عودته مجددا الى وطنه بحثا عن الأمان حيث تتطور الأحداث في شكل منطقي و تتأزم وصولا الى النهاية في صورة أشبه بـ" عودة الوعي" الى الذات التائهة .

لم يكن لدى أرسلان حين قرر السفر الى لندن هدف محدد وواضح، فرغم انتمائه لأسرة إيرانية ميسورة الحال و رغم زواجه البكر من فتاة إيرانية و نجاحه في التجارة مع والده لكن الكاتبة آثرت أن تضع بطلها أمام هذا الامتحان لتصل الى هدفها في الرواية حين تظهر بأن أحلام البطل ليس لها حدود فيطلق زوجته الأولى و يقرر السفر ليقع ضحية استسلامه لتطلعات لا مبرر لها فهذه الآمال تصطدم بصخرة الواقع المرير في أرض الغربة حيث ينغمس أرسلان في لعب القمار و شرب الخمر و يهيم بحب (كيت) الإنكليزية و يتزوجها فتنهار القيم الاجتماعية و الأخلاقية التي تربى عليها حين يكتشف بأن الزوجة الإنكليزية لا تقدر متطلبات الحياة الزوجية بل تخونه مع فرانك شريك الزوج المخدوع في العمل فيقرر إثر ذلك مغادرة لندن الى إيران بصحبة ابنته الصغيرة سوزان لكن المفاجأة الكبرى تقع حين يكتشف لدى زواجه الثالث من فتاة إيرانية بأنه لا يستطيع الإنجاب و هذا يعني بأن سوزان ليست ابنته ،و تتعقد الأحداث الى أن يعثر على زوجته الأولى جيتي التي تركها منذ اكثر من خمسة عشر عاما فيتودد إليها من جديد و يقترب منها مخاطبا إياها بألا تنساه مرة أخرى و من هنا عنوان الرواية.

يستغرق زمن الروي عمر أرسلان الراوي بأكمله (عمره لدى زمن القص 37 عاما) و المكانان في الرواية ، التي ترجمتها هويدا عزت عن الفارسية ،هما طهران و لندن و لا يشكل وصف الكاتبة للمكان محورا أساسيا في الرواية بيد أنها جعلت لكلا المكانين تأثيرا ملموسا في سير الأحداث و تطورها و في تشكيل الحالة النفسية للشخصيات و لم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد الى تناول مجموعة من القيم الأخلاقية في المكانين و مدى اختلافها و ما تنطوي عليه هذه القيم من معتقدات و تقاليد و عادات و طقوس و نمط تفكير تؤثر على تصرفات الشخصيات و سلوكها و ردود أفعالها.

و الكاتبة لا تقدم ذلك بصورة حيادية، بل تنحاز الى الانتصار للقيم الشرقية، وهي هنا تعني بالضبط إيران الثورة الإسلامية فتقدم من هذه الرحلة نموذجا للأسرة الإيرانية المتحابة المتماسكة التي تولي احتراما عميقا للأب و تضمر قدسية خاصة للام مثال التضحية و الطهارة في الشرق على عكس الغرب حيث تسود النزعات المادية. الاستهلاكية و تطغى الأنانية و الخيانة كما توضح الكاتبة على لسان بطلها في أكثر من موقع في الرواية.

و غالبا ما يحدث صدام بين الثقافتين و هو ما تفصح عنه الكاتبة من خلال الشجار و المماحكة المستمرة بين أرسلان الشرقي و زوجته الإنكليزية كيت ففي زيارة للأخيرة الى طهران تعترض على طريقة الذبح بقطع العنق المتبعة في التقاليد الإسلامية و تصف ذلك بالوحشية لكن أرسلان يرد بأننا "نقطع رؤوس الحيوانات لكننا لا نصنع قنابل ذرية لقتل البشر " و في مرة أخرى يقول لزوجته معبرا عن استيائه من قيم الغرب" جميعكم تعيشون في ترف و خداع" و رغم اعترافه بتخلف المجتمع الشرقي الذي قدم منه لكنه يثمن فيه الجانب الروحي إذ يقول" شعبنا لم يصل الى الفضاء لكنه يملك الحب و العواطف".

و كثيرا ما تلجأ الكاتبة في وصف الجو المحيط بصورة تضفي مزيدا من المأساة الى الحالة التي يعيشها البطل فيكون الجو ملبدا بالغيوم و أمواج البحر متلاطمة و البرد يفتك بالجسد فيما البطل يرغب في أن تحمله الرياح بعيدا هربا من المأساة و هي شخصية تتطور وفقا لمسار الأحداث ففي البداية هو ذلك الطفل المدلل الذي تلبي له الأسرة كل طلباته فيشعر باللامبالاة دون أي إحساس بالمسؤولية لكن التغيير الأساسي يطرأ على شخصيته في الغرب حين يستسلم رغم نجاحه في العمل لأهواء زوجته الأجنبية في حفلاتها و لهوها و هو ما لم يعتد عليه في بيئته الشرقية فيقرر الانتقام بعد اكتشافه للخيانة حينا و في أحيان أخرى تبدو شخصية منكسرة و سلبية تستحوذ على اهتمام القارئ و تحظى بعطفه و كثيرا ما تذكرنا مناخات الرواية بتلك الروايات التي قاربت هذه المسألة كما في رواية "موسم الهجرة الى الشمال" للطيب صالح على سبيل المثال .

و هي في سعيها لطرح فكرتها تتحاشى تماما الصور الحسية الجسدية رغم أن سياق الرواية يتطلب ذلك أحيانا كما أنها لا تستعير أي بلاغة أدبية او لغوية و لا تلجأ الى الخيال او الرمز بل تستمد حكايتها القريبة الى الميلودراما . بتعابير السينما . من صميم الواقع و تغفل لدى انهماكها في سرد الأحداث عن الجانب الجمالي لتقدم في صورة سلسة و سهلة أحداثا متسارعة هي الأهم في الرواية كما أن الحوار يشغل حيزا اكبيرا في الرواية التي يسردها الراوي بضمير المتكلم لكن الكاتبة و في الصفحات الأخيرة تلجأ الى ضمير الغائب لتكون هي الراوية التي تروي الرحلة الأخيرة من حياة البطل في الاهتداء الى الطريق الصحيح و العثور مجددا على الزوجة الإيرانية الأولى التي تركها ليعود إليها بعد تجارب قاسية علمته بأنها هي الملاذ الأخير .

و الملاحظ أن الكاتبة لا تغوص كثيرا في جوهر هذه العلاقة العقدة بين الشرق و الغرب و أبعادها و خلفياتها التاريخية لكنها تختار ما يفيد مقصدها إذ تلامس السطح دون أن تتغلغل في الجوهر فلا شك في أن الإشكالية ابعد مما تطرحه الكاتبة بهذه الصورة الوعظية فتظهر الغرب على انه شر كله و تظهر الشرق على انه خير كله و لا يمكن لهذا الاستنتاج" النظيف" الذي تحاول الكاتبة إيصاله الى المتلقي أن يقنع أحدا إذ أن الغرب رغم مساوئه يقدم المعرفة و الفكر و الفن و كذلك الشرق رغم إيجابياته يحفل بممارسات تنطوي على العنف و على قيم بالية لا تعبر عن روح العصر الذي نعيش غير أن الكاتبة تجاهلت ذلك و مضت في طرح فكرتها بصورة مبتسرة و أرادت أن تلقن الشباب الإيراني درسا في التربية و تحذره من الوقوع في شرك الغرب و ألاعيب المرأة الأجنبية و الحال أن الصورة لا يمكن اختزالها بهذه الطريقة المدرسية ،لا سيما و أنها تتجاهل الواقع البائس للمرأة الإيرانية ولعل مثل هذا التجاهل يسهم في المزيد من التشدد الذي تمارسه التيارات المحافظة في مواجهة خصومها من التيارات الإصلاحية في بلد إسلامي ما زالت قضية تحرير المرأة فيه من الملفات الملحة التي تنبغي إثارتها لا إغفالها كما فعلت مريم جعفري في هذه الرواية.

مهمة عادية.. في سماء حلبجة!

عادل العامل

من ترى..
أسقط القنبلة؟!
....
كان قد غادر البيت..
مستلطفاً..
نوم أطفاله..
هدلة الصدر..
من ثوب زوجته..
وجه سيده- المقصله
كان في دربه..
مثلما كان من
يومه..
دائماً..
فارغ الرأس..
من أيما مشكله
غادر الأرض..
مستصحباً عاره..
دونما أسئله
....
كان آذار..
يحنو على ورده..
بعد زحف الجراد..
الذي كاد..
أن يقتله
......
بسمل
استل من كهفه
الحجري..
هراوته المثقله
....
أسقط القنبلة!
1988

فرسان الثقافة الدكتاتورية.. خرجوا من الباب، وعادوا من الشباك!

د. ماجد الحيدر

لمحة من الماضي

في منتصف التسعينيات من القرن المنصرم ساقني حسن الطالع إلى التعرف على الاستاذ "الفريد سمعان".

وكنت وأصدقائي نتساءل قبل ذلك عن مصير هذا الرجل الذي غابت أخباره مع صعود نجم "الدكتاتور" وأفول شمس الثقافة العراقية الملتزمة الأصيلة.. كنا نتساءل عن الرجل: هل مات؟ هل هاجر؟ هل أعدم؟ هل سكت إلى الأبد؟

كانت هذه الاحتمالات هي الخيارات الأكثر ترجيحاً في ذلك الوقت لمعرفة مصير كل من لم يجند قلمه في فيلق "لطيف نصيف جاسم ويوسف حمادي وهاني وهيب" ومن لف لفهم. ذلك الفيلق الذي رفع شعاراً واحداً وإن اختلفت كلماته: الثقافة في خدمة الإعلام.. والإعلام في خدمة صدام!

وصرت من يومها كلما جلست في مكتبه الأنيق بين رفوف الكتب وصور الجواهري والسياب وغوركي وصوت فيروز أشعر أن قدراً كبيراً من كرامتي وثقتي بنفسي قد عاد إليّ وأن هناك قبالة فيلق "الوزير الغجري" على حد وصف أحدهم فيالق من مثقفين نجباء رائعين صمدوا وجاعوا وشقوا وغامروا بأرواحهم كي لا يسقطوا في الهاوية الخزية.

كان هذا موقفهم المبدئي- الستراتيجي كما يقول أهل السياسة والحرب. أما "التكتيكات" التي التزموها لتجسيد موقفهم هذا فقد تنوعت وتشعبت:

فمنهم من آثر طرق "النشر الشفاهي" اي قراءة ما تجود به قرائحهم على ثلة صغيرة من الأصدقاء الموثوقين المؤتمنين.

ومنهم من اتبع الطريقة المعروفة بطريقة "إميلي ديكنسون" الشاعرة الأمريكية الشهيرة في القرن التاسع عشر، وهي الاستنساخ اليدوي وتوزيع العمل الأدبي على اكبر عدد من القراء عن طريق الرسائل أو يداً بيد مع ملاحظة "التطوير" الذي أدخل على هذه الطريقة في بلادنا حين كان الكثير من هذه الأعمال لا يرد فيها اسم الكاتب أو الشاعر تحسباً وخشية مما لا يحمد عقباه!

ومنهم من سرب أعماله كي تنشر خارج القطر أو في كردستان المحررة تحت أسماء مستعارة كما فعل أستاذنا الرائع "محيي الدين زنكنة".

ومنهم من لجأ إلى الغموض والتورية أو التلاعب بالالفاظ او الدعابة والسخرية ليمرر ما شاء من أفكار "معارضة" معتمداً على جهل أعضاء المكتب المهني أو مكتب الثقافة والإعلام كما فعل- على سبيل المثال لا الحصر - الأستاذ "مدني صالح".

ومنهم من آثر الاشتغال بالبحث الأكاديمي الرصين أو النقد الموضوعي الملتزم والالتفاف ببراعة حول ألغام أولئك المسؤولين كما فعلت النخبة الطيبة المعطاء من أكاديميينا الأجلاء مثل الطيب الذكر الدكتور "علي جواد الطاهر" والأستاذ الدكتور "عناد غزوان" والمرحوم الدكتور "نوري جعفر" وغيرهم الكثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

وأعيد هنا أن هذا كان دأب أساتذتنا وشيوخنا الأعلام الذين أخذوا حظهم من الشهرة والتميز قبل صعود الفاشية ممن لم يغادروا السجن العراقي الكبير - عجزاً منهم أو اختياراً- من جهة، ولم يسقطوا في الفخ ولم يلوثوا تاريخهم الناصع من جهة ثانية فخرجوا من المحنة بيض الوجوه والأيدي بقامات أعلى.

كان النظام - وزبانيته الإعلامية يقف لهؤلاء بالمرصاد ويتحملهم كمن يتحمل الداء العضال وينتظر منهم الزلات ويعد سقوط أحدهم في جوق التطبيل والتزمير نصراً يستحق الاحتفال.

محنة الأدباء الشباب

أما الذين "كانوا" شباباً ممن تكاملت أدواتهم الفكرية والفنية ونضجت مع بداية الثمانينيات فقد كانوا منذ البداية أمام خيارات أهونها أشد على المرء من خرط القتاد: الغربة، الانكفاء واليأس، الغموض المفرط، السقوط، العبثية..... أو البقاء في الظل المهجور.

كان الأمر بالنسبة اليهم لعبة خطرة ومغامرة مخيفة. ولذلك لجوءاهم أيضاً إلى خليط من الأساليب والتكتيكات لإيصال أصواتهم وانتزاع الاعتراف بمواهبهم ومن تلك الأساليب كتب الاستنساخ التي ظهرت بالعشرات أو المئات وخصوصاً في السنوات الأخيرة، وهي اختراع عراقي عتيد يستحق الدرس والتفحص والتوثيق!

الصحافة الأدبية الرسمية

أبواب الصحافة الأدبية الرسمية كانت بالطبع موصدة أمام أولئك وهؤلاء، ومشرعة على مصاريعها لشعراء المديح القروسطي والتذلل والمكافآت السخية والمناسبات "الوطنية والقومية" وخصوصاً عيد ميلاد سيادته الميمون، ولكتاب قصة ونقاد عنتريين يستلهمون من فكر "سيادته" وثقافته الرفيعة حتى وصل الأمر بأحدهم إلى تشبيه مهزلة زبيبة والملك بملحمة كلكامش- مفخرة آداب العالم القديم!

كيف لا وقد وقف على هذه الابواب حجاب احترفوا فنون النفاق والدجل والمحسوبية والرشوة وتلميع ثقافيات (ولا اقول شيئاً آخر) المهيب الركن وابنه

كان يخلص من غرابيل أولئك السلطانيين ويجد طريقه إلى النشر مما لا ينتمي إلى هذه الفئات فكان قصائد وقصصاً غامضة مرتبكة لا تكاد تفقه منها شيئاً تخال- لولا حروفها العربية - انها كتبت بلغة أخرى ولا تثير في نفسك غير الملل والتثاؤب يمكنك قراءتها من الأعلى للأسفل وبالعكس ومقالات نقدية مقطوعة الأوصال عمل بها سيف المحرر والرقيب حذفاً وتعديلاً وترقيعاً حتى اخلقت أو صارت أشبه بالأحجيات. فإذا اغلقت عليك جملة أو صورة ما، صار ينبغي عليك سؤال الكاتب عما عناه بذلك. فإذا كنت موضعاً لإئتمان سره أسر لك بالمغزى المعمى وأعطاك كلمة السر، وإلا فاذهب أنت وربك يا موسى! هذا إذا كنت من متوسطي الثقافة والعلم، أما اذا كنت من أهل الفطنة الخارقة للمألوف والألمعية الخارجة عن الحدود فأنت الفائز المحظوظ!

بعيداً عن الإطلاق

ولأني أمقت - بطبيعتي - إرخاء العنان للأحكام المطلقة واستخدام كلمات مثل "كل" و "جميع" و "حتماً" و "دون أدنى شك"... الخ، فإني لا أدعي ان هذا كان حال كل الصحف في جميع الأوقات ولا حال كل المثقفين الذي ينشرون فيها دون استثناء، لكنه حال اكثر الصحف في أكثر الأوقات واكثر الكتاب في أكثر الأوقات، إلا نخبة قليلة شجاعة ذكية يحتفظ أغلب أفرادها بقصص وحكايات لا تنتهي عن معاناتهم مع فرمانات المنع والحجب والقص والتبتير والتقزيم التي حولت الصحافة الأدبية إلى مستنقع راكد ضحل يعج بالديدان والعقارب بدلاً من الواحة الغناء الرائقة العذبة التي كانت عليه حتى صعود الفاشية. فلأولئك النفر الصابر الشجاع ألف تحية.

الثقافة الآن.. صور ومتغيرات

واليوم.. ما الصورة الجديدة للصحافة الأدبية الجديدة في العراق الجديد؟! وهل هي جديدة في كل خطوطها وألوانها؟ أم أن هناك خطوطاً وألواناً وضربات فرشاة قبيحة كريهة تسللت في الظلام إلى هذه اللوحة الجميلة الواعدة التي قامت من بين الأنقاض والخرائب ودخان الحروب والهزائم؟ ألم يعد الكثير من سماسرة الثقافة - الإعلامية إلى تصدر الصفحات الثقافية، وإغراقها بـ "إبداعاتهم" الغثة التي لم تبتعد شكلاً ومضموناً عن صولاتهم وجولاتهم القديمة بعد إعادة طلائها، وتقريب من شاؤوا من محسوبيهم القدامى بغية إبعاد الأصوات الملتزمة الأصيلة التي حرمت زمناً طويلاً من متنفس حر ديمقراطي يستحقونه عن جدارة؟

قد يكون من دعاة نظرية العفو عما سلف على طريقة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم.

قد يكون من بيننا من هو مستعد لإسقاط حقه القديم خدمة للمصالحة الوطنية ولسان حاله يقول:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

ولكن أيها السادة. يا فرسان المؤتمرات القومية والقطرية. يا صناديد الإيفادات والمكافآت. أبعد أن سكتنا دهر أتريدون أن تلووا أحناكنا لننطق كفراً؟ أبعد أن كنا لا نعرف من وزارة الإعلام غير طابقها التاسع حيث دائرة رقابة المطبوعات بينما تستطيعون الوصول مغمضي الأعين إلى حيث دائرة الحسابات تحتها بطابق أو طابقين- لا أذكر بالتحديد لأني لم أزرها غير مرتين استجابة إلى طلب الأصدقاء سامحهم الله حين كانوا يوصونني بالمرور عليها والسؤال عن مصير مكافآتهم على قصائد يوم الزحف الكبير أو البيعة الميمونة أو ظهور الأحفاد!

أبعد أن كنا لا نحفظ من وجوه موظفيها غير وجه "الحجية فردوس" الطيبة التي تتسلم نتاجاتنا التي نرغب بنشرها على حسابنا وحساب قوت أطفالنا وتقول لنا "عد بعد شهر أو شهرين ريثما يظهر تقرير الرقيب"، في الوقت الذي كنتم لا تفوتون فرصة إلا وقفزتم أمام وجوه الديناصورات المتنفذة وقد رسمتم ابتسامة متملقة ومتذللة و.. إشلونك أستاذ؟!

أبعد هذا وغيره مما يطول به الحديث تريدون أن تظللوا الشابندرات الحاكمين بأمركم في سوح (ستقرأونها سوق) الثقافة العراقية؟

وأنتم أيها السادة رؤساء التحرير وأصحاب الإمتياز والمديرين المسؤولين. إحذروا هؤلاء. وتذكروا ما قاله الجواهري العظيم للزعيم الراحل مستنكراً ومحذراً "يا سيادة الزعيم.. أثورة بشرطة نوري السعيد؟!"

إنها ليست دعوة إلى محنة كمحنة المعتزلة، أو محاكم تفتيش بابوية، أو حملات تطهير ستالينية. فلا نملك شيئاً من هذا بعد اليوم- وإلى الأبد كما نأمل ونتمنى. لكنها دعوة.. دعوة مخلصة من القلب إلى الصدق والتطهير والشجاعة في مواجهة الذات والجلوس في الظل قليلاً لمراجعة النفس ومحاسبتها ونحن بالانتظار!